عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الأولى: مقدمات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الثاني: التصوف علم عملي
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

التصوف علم عملي

يبين الدرس الثاني كيف أن علم التصوف يعتبر علما يرتكز على العمل والاشتغال وليس على مجرد النظر والتأمل، ولذلك فإن أي منهج يروم دراسة التصوف ينبغي له أن يراعي مقتضى الاشتغال الصوفي، فالنظر لغة: الانتظار، وتقليب الحدقة نحو المرئي، والرحمة، والتأمل. ويتميز بالمعدي من حروف الجر. وفي الاصطلاح: الفكر المؤدي إلى علم أو ظن. قال إمام الحرمين في الشامل: «الفكر هو انتقال النفس من المعاني انتقالا بالقصد، وذلك قد يكون بطلب علم أو ظن، فيسمى نظرا. وقد لا يكون كأكثر حديث النفس، فلا يسمى نظرا بل تخيلا وفكرا. والفكر أعم من النظر. فالحاصل أن قصد الناظر الانتقال من أجزاء الحد، وقال في البرهان: «حقيقة النظر تردد في أنحاء الضروريات ومراتبها، وقال فيما بعد: عندنا مباحثة في أنحاء الضروريات ومراتبها وأساليبها، وقد اعترف فيما بعد أن الضروريات تنقسم إلى هاجم عليه، ويسمى ضروريا. وإلى ما يحتاج إلى فكر، فيسمى نظريا. قيل: وهذا نقض لقوله: إن كلها ضرورية. وأما حصر النظر في الضروريات فلا يستقيم، فإنه قد يكون في غير الضروريات ضرورة، ثم هو منقوض بالشك[1]

وقال القاضي أبو بكر: النظر هو الفكر الذي يطلب به من قام به علما أو ظنا، وهو مطرد في القاطع والظني. واحترز بقوله: «به من بقية الصفات، فإنه لا يطلب بها بل عندها، فيكون شرطا للطلب. كذا حكاه عنه الآمدي واستحسنه، وأجاب عما اعترض به عليه، ثم اختار خلافه، وليس لشيء واحد حدان مختلفان. وقال الأستاذ أبو منصور: هو الفكر في الشيء المنظور فيه طلبا، لمعرفة حقيقة ذاته أو صفة من صفاته، وقد يفضي إلى الصواب إذا رتب على وجهه، وقد يكون خطأ إذا

1. البحر المحيط بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي، ص61، ج1، ط1، دار الكتبي، 1414هـ/1994م.

خولف ترتيبه. وقال الغزالي في الاقتصاد: «إذا أردت إدراك العلم المطلوب فعليك وظيفتان: إحداهما، إحضار الأصلين أي: المقدمتين في ذهنك. وهذا يسمى فكرا. والآخر يسوقك إلى التفطن. لوجهة لزوم المطلوب من ازدواج الأصلين، وهذا يسمى طلبا. قال: فلذلك من جرد التفاته إلى الوظيفة الأولى وجد النظر بأنه الفكر، ومن جرد التفاته إلى الثانية قال: إنه طلب علم أو غلبة ظن. قال: ومن التفت إلى الأمرين جميعا قال: إنه الفكر الذي يطلب به من قام به علما أو غلبة ظن. قالوا : ولا يستعمل إلا فيما يمكن أن يحصل[2] له صورة في القلب، ولذلك ورد «**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**». وقال بعض الأذكياء: الفكر مقلوب الفرك غير أن الفكر لا يستعمل إلا في المعاني. وقال القاضي أبو يعلى في كتابه المعتمد الكبير: «النظر والاستدلال معنى غير الفكر والروية، بل يوجد عقبه. خلافا للمعتزلة في قولهم: إنهما بمعنى واحد، ولنا أن الإنسان يفكر أولا في الجسم. هل هو قديم أو حادث؟ وما دام مفكرا فهو شاك، ثم ينظر بعد ذلك في الدليل، وحينئذ يلزم أن يكون النظر والفكر متغايرين. قال الروياني في البحر: والفرق بين الجدال والنظر وجهان: أحدهما: أن النظر: طلب الصواب، والجدال: نصرة القول. والثاني: النظر: الفكر بالقلب والعقل، والجدال: الاحتجاج باللسان.[3]

العمل:

العمل كما جاء في القاموس هو: «المهنة والفعل وجمعه أعمال ، وأعمله واستعمله غيره، واعتمل عَمِل بنفسه، وقال الراغب الأصفهاني: «العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها بغير قصد... والعمل يستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة».[4]

فمن خلال هذه الدلالات الاصطلاحية، يدل لفظ النظر لغة على الإبصار واصطلاحا على الفكر الذي يطلب الظفر بالمعرفة، ويقال المعرفة النظرية في مقابل المعرفة الضرورية التي يراد بها المعرفة التي تقوم بالفطرة في نفس الإنسان، وإذا ما أسند وصف النظر إلى لفظ الأخلاق وقلنا: الأخلاق النظرية دل هذا الوصف على ما يدل عليه النظر في إفادة ممارسة الاستدلال، فتكون الأخلاق النظرية هي بالذات الأخلاق الاستدلالية، أي الأخلاق التي تتبع في استنباط أحكامها طرائق الانتقال من المقدمات إلى النتائج بمقتضى قواعد محددة. وإن تعداد وجوه إضافة الأخلاق إلى الفلسفة أو العلم، كقولنا الفلسفة الأخلاقية أو علم الأخلاق ، تشير إلى الطابع الاستدلالي للأخلاق[5].

2. البحر المحيط بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي، ص62، ج1، ط1، دار الكتبي، 1414هـ/1994م.
3. البحر المحيط بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي، ص63، ج1، ط1، دار الكتبي، 1414هـ/1994م.
4. المفردات، مادة: عمل، ص351.
5. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 382، المركز الثقافي العربي، ط2.

ومن ثم فإن التجربة الصوفية في الإسلام قد تميزت مقاربتها للقيم والأخلاق بترجيحها لطريق الاشتغال العملي بديلا عن الاستدلال النظري.[6] فالتصوف في تعريف أهله علم استمد أصوله من الشريعة الإسلامية[7] كسائر العلوم الإسلامية التي انبثقت حركية تأصيلها واختراع نظامها من الوحي الديني والهدي النبوي، نظرية كانت أو عملية[8]، فلم ينفك طريق تحققها الأخلاقي عن الحقيقة الدينية، لأن «صلة الأخلاق بالدين لا يمكن إنكارها، ومتى ثبتت هذه الصلة، لزم أن تطلب الأخلاق العمل الذي يتعدى نفعه إلى الغير وإلى الآجل كما يطلبه الدين الذي يرد العمل القاصر على الذات وعلى العاجل ردا، ... وإذا كان الأمر كذلك، ظهر أن الحقيقة الخلقية موصولة بالحقيقة الدينية وصل تداخل، حتى إنه لا فائدة ترجى من أي اعتبار لأحدهما لا يكون مقرونا باعتبار الآخر»[9].

وجد التصوف إذن، في العناية بالقيم والأخلاق موضوعا للاشتغال بالمعنى العملي وليس بالمعنى النظري، ولقد استند في ذلك كله على الرؤية القرآنية والنبوية التي تنبني على أن مهمة الدين الخاتم ووظيفته الحصرية هي تتميم وتكميل مكارم وصالح الأخلاق[10]. ولذلك فينبغي أن ينظر إلى علم التصوف في سياق الإنتاجية العلمية والمعرفية والسلوكية التي اقتضتها المنهاجية الاستمدادية من الأصلين تدبرا وعملا وتأولا. بعيدا عن دعوى ضحالة الفكر الأخلاقي الإسلامي بالمقارنة بما ظهر عند غير المسلمين من «رؤى» و«أنظار» أخلاقية، وكأن «الاستشكال الفلسفي والاستدلال المنطقي اليونانيين ملزمان لكل ممارسة للنظر الأخلاقي، وأن الممارسة الإسلامية قد قصرت عن استيفاء شرائط هذين الجانبين من الأخلاق النظرية»[11]، وإذا ما تم التحرر من ضيق المعايير الأجنبية عن المجال التداولي الإسلامي، وتم فحص المنظور القيمي الصوفي في الإسلام، ظهر بأنه ذو طبيعة نظرية وعملية خاصة، ليست بالضرورة من جنس الأنظار والأعمال الأخلاقية المرتبطة بأنساق حضارية أخرى، فـ«علم التصوف اقترن اسمه بعلم الأخلاق، حتى أطلق عليهما اسم واحد وهو «علم السلوك»، أضف إلى ذلك ما تضمنته الفلسفة الإسلامية من معان أخلاقية استمدتها من العلوم المذكورة، لا سيما «علم التصوف» منها، حتى إننا لا

6. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 382، المركز الثقافي العربي، ط2.
7. الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، ص19 دار المعارف، القاهرة. اللمع، أبو نصر السراج الطوسي،تحقيق، عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، ص21، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، 1966.
8. مناهج الاستمداد في العلوم الإسلامية،ط1، 2008، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، وهو كتاب تضمن أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء أيام 27-28 صفر 1429هـ الموافق 5-6 مارس 2008م
9. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 383 المركز الثقافي العربي، ط2.
10. استنادا إلى الروايتين الصحيحتين «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، و«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، أخرجهما البخاري في كتاب الأدب.
11. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 386 المركز الثقافي العربي، ط2.

نكاد نجد فيلسوفا إسلاميا اشتهر ذكره لم يخض خوضا في معان مأخوذة من هذا العلم. ولا عجب في ذلك، فإذا الفيلسوف اكتمل عقله المجرد حتى بلغ غايته، تشوق إلى مزيد التغلغل في دقائق الفكر التي تلوح له من وراء هذه الغاية، فلا يجد، لإرضاء حاجته، إلا لطائف المعاني، ورقائق الإشارات التي تورثها مراتب التجربة الروحية التي ينزل فيها الصوفي»[12].

إن ما نقف عليه من معارف صوفية مبثوثة في مصنفاتهم، ليست ثمرة تأملات نظرية، بل هي نتيجة مجاهدات للنفس، وحصيلة تزكيتها بالأعمال الشرعية المفروضة والمسنونة، مما يخرج التصوف الإسلامي من دائرة المقارنات مع سائر الرياضات المختلفة غير المؤطرة بأنوار الوحي والموكولة إلى الاجتهاد البشري المحدود.

12. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 386 المركز الثقافي العربي، ط2.